

كيف تهدد القومية عروش العائلات الحاكمة في الخليج؟



يظهر في بعض الأحيان أن النعمة في ظاهاها قد تكون نعمة في واقعها، أو هكذا اكتشفت دول الخليج العربية. وعلى الرغم من أن ذلك قد وهبها كميات هائلة من الهيدروكرbones، إلا أن دول الخليج العربية قد أصبحت تشعر باللعنـة مع معرفـة أن العالم لن يدفع أسعارـا أعلى مـجددا لأجل نـفطـها وغازـها. ومن أجل تلبـية ثـمنـ الحـدـاثـةـ وإـصـلـاحـ اـقـتصـادـاتـهاـ، شـرـعـتـ دولـ الـخـلـيجـ فيـ تنـفيـذـ مـشـارـيعـ وـاسـعـةـ لـتعـزيـزـ الـهـوـيـةـ الـوطـنـيـةـ تـهـدـيـ إلىـ تحـوـيلـ قـبـائـلـ وـطـوـائـفـ الـبـلـادـ إـلـىـ موـاطـنـيـنـ مـنـتجـينـ، مـنـافـيـنـ عـالـمـيـاـ، مـخلـصـيـنـ لـلـدـولـةـ. ولكنـ فيـ حـينـ أـنـ مـثـلـ هـذـهـ الـخـطـطـ قدـ وـضـعـتـ لـلـنـجـاحـ عـلـىـ الـورـقـ، فـقدـ يـكـونـ الـوـاقـعـ مـخـتـلـفاـ تـمـاـ؛ حيثـ يـؤـديـ ضـعـفـ التـجـاوـبـ الـمـحـليـ إـلـىـ إـعـاقـةـ هـذـهـ الـمـشـارـيعـ الـطـموـحةـ لـإـقنـاعـ الـمـوـاطـنـيـنـ بـأـنـ يـصـبـحـوـاـ مـوـاطـنـيـنـ مـنـتجـينـ اـقـتصـادـيـاـ، مـاـ يـتـرـكـ خـلـيـطاـ مـنـ الإـلـاصـاـتـ الـجـزـئـيـةـ مـعـ النـزـعـةـ الـقـومـيـةـ يـهـدـدـ بـإـثـارـةـ الـصـرـاعـاتـ.

الإنسان السوفيفيتي الجديد

بالطبع، هناك سابقة لمشاريع تحويلية بالنسبة للهوية الوطنية، مثل الاتحاد السوفيفيتي في مراحله المبكرة. وهناك، كان إرث الغزو الإمبراطوري حاضراً، وكذلك العادات التي ولدت على مدى قرون من الإقطاع، وكان رعياً القيصر السابقين بالكاد يصلحون كمواد بشرية أولية تصلح لبناء النظام الشيوعي

الجديد. وردا على ذلك، حاول السوفيات فرض هوية ثقافية وطنية واقتصادية على شعوب الاتحاد الشاسع، اتحاد الرجل السوفييتي الجديد.

وبدلا من نجاح الرجل السوفييتي الجديد، الذي ينكر الذات ويخدم الاشتراكية، ظهر الـ"هومو سوفيت"، وهو إنسام مشرّب بصفات عكس تلك التي سعت موسكو إلى غرسها في مواطنيها. ولم يتمكن هذا النموذج من أن يصبح المحرك الاقتصادي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، أو أن ينهي موجة القومية التي نشأت خلال حقبة الشفافية "الغالانسوست" التي أعلنتها "ميшиيل جوربا تشوف" مما أدى في النهاية إلى تفكك الاتحاد السوفييتي نفسه.

وكان أحد أسباب فشل السوفييتس في إنشاء شخص جديد ينبع من نهجهم لبناء الهوية من أعلى إلى أسفل، وهو نهج لم يكتسب أي دعم على المستوى الشعبي. سواء في "تبلisi" أو "طشقند" أو "تومسك"، تم إجبار المواطنين السوفييتس على اللغات والطقوس والأبطال والعادات الاقتصادية التي يدعمها المخططون النائيون الروس بدلا من الحصول على فرصة لإدراج هوياتهم الخاصة في هذا الوجه السوفييتي الجديد. علاوة على ذلك، بينما امتدح السوفييتس العمل الجاد والعادات الاقتصادية الإنتاجية، فشلوا بشكل أساسيا في هيكلة اقتصادهم لتحفيز هذا التوجه من أسفل إلى أعلى. وعندما ظهرت الدفعة الجيوسياسية في نهاية الحرب الباردة، لم يكن هناك رجل سوفييتي جديد يمكن العثور عليه، بصرف النظر عن النماذج الموجودة في ملصقات الدعاية.

الإنسان العربي الخليجي الجديد واليوم، يواجه حكام دول الخليج العربية مشكلة مماثلة فيما يتعلق بتبني الهوية الجديدة. وأثناء شروعهم في استراتيجية الهوية الوطنية من أعلى إلى أسفل، يجب عليهم إيجاد طرق لتحويل رعاياهم من مشاركيين سلبيين إلى مواطنين نشطين ومنتجين. لكن في حين من الوارد أن تتحقق هذه الدول نجاحا في إعادة هيكلة الحياة الاقتصادية لسكانهم، فمن المرجح أن تتلاشى آمالهم في إبقاء شعوبهم غير سياسيين وموالين دون شرط.

وتتمتع الدول الخليجية الـ6 في مجلس التعاون الخليجي المتواتر بتاريخ وهويات محلية متباعدة. ويعود عمر سلطنة عمان إلى قرون من الزمان، لكن حدودها الحديثة لم تتشكل إلا بعد عدة حروب دامية في الخمسينيات والستينيات. ولا تزال البحرين والكويت وقطر والإمارات متأثرة بشكل كبير بالهيكل القبلي الذي وجدها البريطانيون، وأعادوا ضبطها في القرن التاسع عشر وتحكم السعودية مناطق غالبا ما تتشابه في نفس المفات مع جيرانها، أكثر مما تشاركه مع العاصمة الرياض.

ولبناء دول قومية حديقة، تختبر دول مجلس التعاون الخليجي مشاريع الهوية الوطنية. وعلى الورق، فإن إنشاء خليج عربي جديد له مزايا، مثلما كان لنموذج "الرجل السوفييتي الجديد" مزاياه الافتراضية. ولكن في الممارسة العملية، ستظل العقليات القديمة دائمة تحت السطح على استعداد لإعادة تأكيد نفسها.

وتنتهي هذه الديناميات تناقضات واضحة؛ ففي حين يسن الحكام في إحدى دول الخليج إصلاحات لتنغير الاقتصاد هيكلياً، فإنهم يقدمون بإجراءات آخر لتقويض ذلك الإصلاح في الوقت نفسه. وإذا أردنا ذكر أدلة على ذلك، فلن ننظر إلى أبعد من تطبيق الإمارات للضرائب على القيمة المضافة تزامناً مع زيادة أجور القطاع العام في عام 2018، وهناك أيضاً إصلاحات السعودية الخاصة بتنفيذ الضرائب تزامناً مع زيادة الدعم، وكذلك التأخير في تطبيق ضريبة القيمة المضافة في عمان، وهي قضية تثير قلق السلطنة بشكل خاص، بالنظر إلى حاجتها الملحة للإصلاح.

وفي جميع أنحاء الخليج العربي، نفذت الدول تغييرات هيكلية لتحسين الإنتاجية، وتقليل الاعتماد على القطاع العام كوسيلة للتوظيف، وزيادة إيرادات الدولة إلى ما وراء الهيدروكربونات، لكنها قامت بالعكس عبر تقويض الإصلاحات بامتيازات ودعم جديدين. وقد أخرت الدول التي تخشى من رد الفعل العام ضد إعادة الهيكلة الاقتصادية الضرورية والمؤلمة أو عكست أو ألغت الإصلاحات المزعومة. ونظراً لعدم قدرتهم على إيجاد مسارات سياسية لنزع فتيل المقاومة العامة، لجأت دول الخليج بدلاً من ذلك إلى إعانت مخبرة ومخبرة للحفاظ على العقود الاجتماعية القائمة، والتي تغرس في السكان الاعتماد على الدولة، مما يقلل من فرص قدرتهم على المشاركة في أي تحول اقتصادي في بلادهم. ولم تقم أي دولة خلجمية بعد بكسر هذا النمط، خاصة في وقت أدى فيه ارتفاع أسعار النفط نسبياً إلى تقليل الحاجة الفورية إلى الإصلاح الهيكلي.

الالتفاف حول العلم

لكن هذا لا يعني أن مشاريع الهوية الوطنية لن تحقق أي تقدم. وفي الواقع، تغذي الأزمات داخل المنطقة وخارجها مشاعر قومية غير مسبوقة. وتسبب الحصار الذي قادته السعودية ضد قطر في التفاف مواطنين البلاد حول أسرة "آل ثاني" الملكية، مع ظهور رموز وأبطال قوميين جدد. وفي أماكن أخرى، وحدت الحرب في اليمن العديد من الإمارatis حول أعلام البلاد، في حين قد منحت حرب الرياض الباردة ضد طهران السعوديين خصماً وطنياً ليقاوموه. وقد ارتبطت كل هذه الأحداث بسياسات وطنية متعمدة أكدت على الهويات الوطنية الفردية؛ حيث ينظر كل من القطريين والإمارatis وال سعوديين والعمانيين والكويتيين والبحرينيين إلى أنفسهم بعين الفردية أكثر فأكثر. وكان هذا حاضراً في كأس آسيا الأخيرة في الإمارات،

حيث ظهرت آثار الأزمة الخليجية في المدرجات، وقد دعم العمانيون والكويتيون دولة قطر، حيث منعت السلطات الإماراتية معظم القطريين من حضور البطولة، في حين ألقى المشجعون الإماراتيون الأذذية على الفريق القطري، الذي أطاح بالمنتخب الإماراتي، وقبله السعودي، في طريقه للفوز بالبطولة.

ولم يعتقد حكام الخليج على مثل هذه الحماسة الوطنية، ولكن مع تطور هذا الاتجاه الجديد، سوف يتطور القوميون في كل دولة أولوبيا لهم الخاصة، ويشوهون خصومهم، ويقررون بأنفسهم ما الذي يشكل الشرف الوطني وما الذي لا يفعل. وسيجبر هذا بدوره حكام الخليج على التفكير في مواطنיהם بطرق جديدة. وكان موضوع الحرب والسلام منذ فترة طويلة من اختصاص الديوان الملكي، أو المجالس المختارة من الأسر المالكة، أو الملك نفسه، فقد يكون لدى القوميين أفكار أخرى. وفي هذا الصدد، قد يتغير القوميون صراعا حول قضايا قد يفضل حكامهم تجنبها، مثل الصراع الأرمني الأذربيجاني، الذي كان يبدو مستعصيا، والذي تغلب فيه التيار القومي المتبع على الهوية السوفيتية الموحدة، ما أشعل حرباً أهلية في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات بين الجمهوريتين السوفيتيتين. وعلى العكس من ذلك، فقد يؤدي أيضاً إلى تغذية الانعزالية، وإجبار القادة على تجنب تقديم مبادرات استراتيجية لاسترضاء القوميين. وقد تقوّض القومية أيضاً الاتفاقيات التي ربما يعقدها حكامهم مع خصوم تكرهها الشعوب، وقد يطالب القوميون بتقديم الدعم والتضامن مع دول يفضل الحكام تجنبها. وباختصار، فإن كل ذلك يعني أن هذه الموجة الجديدة من القومية من المرجح أن تقوّض الخيارات الاستراتيجية للعائلات الحاكمة.

ومع ذلك، يلوح في الأفق قلق أكبر، وهو ذروة الطلب على النفط. وعندما يأتي ذلك، لن تتمكن مناديق الثروة السيادية ولا الهيدروكربونات من سداد الفواتير. فكيف سيكون رد فعل القوميين ذلك اليوم؟ هل سيتجمعون ويتكاّتفون ويختارون التقشف، كما تأمل العائلات الملكية؟ أم هل يلومون حكامهم في نوبة من الغضب الشعبي، المعمور بعمود بشعور وطني يتقاطع مع مطالع الطائفة والعمّر والجنس والعرق؟ لا يزال هذا اليوم بعيد المنال، لكنه قادم لا محالة.